بين موريسكيي الأمس واليوم: التقية كخيار نجاة

21 - يناير - 2026

سقطت غرناطة لكنها بقيت غصة في حلق كل من صدّق الوعود والمعاهدات التي أُحرقت بنار التعصّب، فغادر من استطاع وبقي المتمسك بأرضه والفقير عالقاً في برزخ، فصل فيه بين إسلامه الباطني ومسيحيته الخارجية. الموريسكيون حكاية شعب لم يرضخ على الرغم من العذاب النفسي والخوف والتهديد في كل لحظة بالإعدام حرقاً إن تم اكتشاف «هرطقته» فهم مسلمو غرناطة الذين لم يخرجوا بعد سقوطها. كيف ولماذا وأين باقي المسلمين من نجدتهم آنذاك؟ كنت أكذب مقولة «التاريخ يعيد نفسه» حتى رأيت التاريخ يعاد في كل الدول، ورأيت أحفاد الموريسكيين في أحداق مستضعفي اليوم، بغض النظر عن هويتهم وعرقهم. ومن المسلّم أنه عندما تضعف الحضارات يكثُر أعداؤها ويصبح التسليم سهلاً، خوفاَ من إراقة المزيد من الدماء. لكن لا أحد يعلم قَدَر من أراد البقاء. لقد فرضوا الدين المسيحي على كل المسلمين هناك والتخلي التام عن دينهم ووضعوهم تحت المراقبة المشددة، حتى الاستحمام يوم الجمعة يعد انتهاكاً والتحدث بلغتهم الأم العربية يستحق صاحبه التعذيب والإعدام في حال ثبت إسلامه. فلم يكن أمام

هذا الشعب إلا التقية إذ كانوا مسلمين في منازلهم ومسيحيين خارجها، يذهبون إلى الكنائس ويمارسون الشعائر ويشترون لحم الخنزير لكنه تمويه فقط، لتفوح رائحته من المنازل من دون تناوله، وتحت ظل كل تلك الأحداث هناك جندي خفي يحافظ على رونق الإسلام بذكاء ومن دون لفت انتباه الجنود المنتشرين في أزقة غرناطة. إنها المرأة الموريسكية التي ابتكرت الكثير لتبعد العذاب عن بيتها وتحافظ على مسجدها في المنزل، فهي التي أوقدت النار لتفوح رائحة شحم الخنزير في حين كانت تطهو على قدر آخر غطته بإحكام طعاماً حلالاً.

وقد ربت الأجيال على العقائد والشريعة ونبّهت الطفل أنّ اسمه «خوسيه» خارج البيت وهو يوسف داخله وألا يفصح لأحد عما يفعلونه داخل منزلهم. وحافظت على الماء كي لا يخرج من المنزل إلا بقدر قليل يكفي للوضوء حتى لا يشعر رجال السلطة بأنّهم يمارسون شعائرهم. وألبست أطفالها ثياباً جديدة في العيد مخفية تحت الثياب العادية، حتى الفرح يجب إخفاؤه. والأضاحي تذبح خفية مع بسملة لا تكاد تسمع، كل هذا والمسلمون آنذاك منشغلون ببلدانهم ومشاكلها مع محاولة بعضها تقديم المساعدة. يمكن أن يخفي المرء حقيقة كل شيء لكن اللغة إن أخفاها فستُمحى آخر ذرة من هويته وحضارته التي إن لم يحفظها فستندثر، وهذا ما فعله الموريسكيون. صنعوا لغة جديدة تسمى « الألخميادو» (العجمة) وهي كتابة اللغة الإسبانية بأحرف عربية لحفظ التاريخ والإسلام، وعندما هُجِّروا من غرناطة وضعت النساء هذه المخطوطات في مهود أطفالهن وداخل ثيابهن كي لا تندثر ويبقى الإرث محفوظاً لأقصى حد من الأجيال. وحدها مريم الحكيمة تلك السيدة التي ذُكرت في سجلات محاكم التفتيش باسم «ماريا دي لون» عندما داهم المحققون منزلها في عام 1588، لم يجدوا سلاحاً بل وجدوا قرآناً كريماً مخبأً تحت بلاطة الموقد. واجهت مريم التعذيب بثبات وقالت بقوة للمحقق: «خبأته لأنّه إرث أمي، ونحن نقدس إرث الآباء كما

تقدسون رفات القديسين». وبذلك حمت مريم روح أمة كاملة من الاندثار. وعلى الرغم من تعصب المسيحيين بأنّ المسيحي الأصلي يجب أن يكون نقي العرق من دون اختلاط بأديان أخرى، وطردهم لآلاف الموريسكيين إلى شمال إفريقية، فإنهم فشلوا في اقتلاع الجذور التي امتدت إلى المغرب وتونس والجزائر. والجينات لم تمت في الأندلس.

فهذه القصة تذكرة صارخة بأنّ القمع قد يغير ملامح الشوارع لكنه أبداً لن يغسل ماء الوضوء من ذاكرة الشعوب، فمريم قد رحلت، لكن صلاتها السرية لا تزال تتردد في نغمات المالوف ورائحة الياسمين الأندلسي. لكن ماذا عن موريسكيي اليوم؟ من هم وأين يسكنون؟ عندما قلت إنّ التاريخ يعيد نفسه، قصدت أنّنا شاهدنا في عصرنا الحالي من أخفى دينه خوفاً من التعذيب، كما في الموصل العراقية، حيث أخفى الشيعة المتبقون طائفتهم خوفاً من قمع داعش لهم، فأظهروا أنّهم على غير طائفة كيف يحفظوا أنفسهم من أن تزهق بحجة الكفر والردة. وهناك منطقة في إدلب تدعى «جبل السماق». طائفة السكان بالأساس دروز، لكنهم قلبوا طائفتهم تحت ضغط داعش أولاً، فأعلنوا إسلامهم، ثم جاء الأمير التونسي لجبهة النصرة في المنطقة، ليقوم بدور المفتش للعقيدة، فطلب منهم أن يثبتوا إسلامهم، فهدموا مراقدهم، أطاعوا من أجل الحفاظ على أنفسهم. لكن يبقى مسجد بلال الحبشي، وصوت المؤذن من السكان المحليين، وسؤال الأطفال: هل نحن دروز أم مسلمون؟

فهل معهم الحق في التقية؟ نعم، معهم الحق، لأنّ القلة يجب أن تندمج مع الأكثرية، ردءاً للفتن وحقناً للدماء، حتى وإن كان يضيّق عليهم الأرض بما رحبُت ويمنعهم من ممارسة شعائرهم التي كانوا يجدون فيها السكينة والقرب من الله. لكن التقية الحل الأمثل للصبر وعدم تمزيق البلاد من أجل التعصب والقلوب السليمة يمكنها أن تجد الله وتعرفه وتحفظ الدين كما فعلت مريم مع القرآن ومخطوطات الألخميادو

وكأنّها ترسم خارطة جيل كامل بالقلم والورقة وكلمات لا تمحى مهما بقيت تحت البلاط ومهما حاولوا حذفها من الذاكرة.

كاتبة سورية

كلمات مفتاحية

نور كوركو

اترك تعليقاً

لن يتم نشر عنوان بريدك الإلكتروني. الحقول الإلزامية مشار إليها بـ *

التعليق *

الاسم *

البريد الإلكتروني *

إرسال التعليق

فؤاد عبد النور. يناير 22, 2026 الساعة 8:50 ص

أود أن أحيي الكاتبة على مقالها هذا، والصحيفة لفتحها المجال لمقالات غير متعصبة مثل هذا. وأود أن أزيد أن المسيحيين أنفسهم قد مارسوا الاضطها الديني قبل غيرهم. ابرز مثال يعرفه الجميع هو محاكم التفتيش. مدن بكامها كانت تباد لأنها اتبعت آراء المصلحين.

لو اراد الله أن يتبع البشر ديناً واحدا لفرضه بالفعل. ليس أمامنا سوى تقبل الآخر بمحبة، باعتباره شريكا في هذا الكون المضطرب.

رد

الدكتور جمال البدري يناير 22, 2026 الساعة 3:07 م

حسنًا وضع المحرر مقالك أختي كوركو في خانة التحقيق...فحضرتك حققت في أصل القضيّة دون مواربة ولا تصفيق...
كلماتك رأيتها كنجوم مضيئة في ليل ساكن السمت؛ حركته رياح الصبّا والجنوب بكلمات أقوى من صرير الجنادب في
الظلام الباهت.نعم الوضوء بمعناه الحقيقيّ والمجازيّ؛ يغسل أدران الشّيطان بروح الرّحمن.سلم قلمك يابنت الشام.

رد

اشترك في قائمتنا البريدية

أدخل البريد الالكتروني *

اشترك

حولنا / About us
أعلن معنا / Advertise with us
أرشيف النسخة المطبوعة

أرشيف PDF

النسخة المطبوعة

سياسة

صحافة

مقالات

تحقيقات

ثقافة

جميع الحقوق محفوظة © 2026 صحيفة القدس العربي

adberries